حركة التحرير الوطني الفلسطيني-فتح
مفوضية الاعلام والثقافة و التعبئة الفكرية

وطن قومي ليهود شعوب العالم....أين؟

في كينيا أم سوريا أم قبرص أو الأرجنتين أم العراق؟

خالد الحروب

ملخص تنفيذي

في مقالات أربعة يكتب الاكاديمي الفلسطيني خالد الحروب عن اختراع "الوطن القومي" ليهود الشتات، وخاصة الاوربيين، ضمن عدة احتمالات او خيارات وكأن الأرض على إطلاقها ملك لهم او للاستعمار البريطاني المتخم بعنصريته ضد الآخرين؟! المتحالف ضد يهود أوربا الكاره لوجودهم بينه، والراغب بالتخلص منهم كليا كما تبين الأحداث ضمن الدراسة المرفقة وبالتعاون مع الحركية الصهيونية لاحقا، التي لم تكن أقل من الاستعمار الغربي عامة والبريطاني خاصة عنصرية وبغضا لشعوب المناطق والدول المختلفة التي اقترح أن يستعمرها يهود اوربا شرقها وغربها.

ومن الدراسة المرفقة نقتطف بعض المقاطع التالية حرفيا:

1- يهود **العراق** وبغداد رفضوا بشدة المقترحات الصهيونية بجلب يهود أوروبا إلى العراق.
2- المخطط الأولي كان يتضمن ترحيل مائة ألف يهودي من أوكرانيا إلى العراق، يمثلون بداية لمشروع استيطاني كبير يوفر كياناً ليهود أوروبا.
3- هرتسل نفسه في كتابه "الدولة اليهودية" كان متردداً بين **فلسطين والأرجنتين** كاحتمالين لإقامة الوطن القومي لليهود فيهما.
4- الصهيوني **"إسرائيل زانغويل"** كنموذج فقط: تبنى نظرة استعمارية واستعلائية تجاه الشعوب الأخرى ولم يكن يتردد في استخدام أوصاف عنصرية إزاء السكان المحليين.
5- اعتبر **الزعماء الصهاينة أنفسهم وحركتهم جزءاً من الحضارة الأوروبية التي لها الحق أن تستعمر حيث شاءت على وجه الأرض** من دون أي اعتبار لشعوب البلدان التي تُستغل وتُستعمرز
6- استمرت **المستوطنة "القبرصية الأولى"** عدة سنوات بعد تأسيسها عام 1882 (حتى العام 1939م) لكن ما لبث مشروعها أن فشل بسبب عدم حماس اليهود للهجرة إليها، وفشل مستوطنوها في تحويل الأرض "إلى جنة زراعية" مغرية للآخرين. كان معظم اليهود الأوروبيين راغبين في الهجرة إما إلى أوروبا الغربية أو الولايات المتحدة، ومعظمهم من خلفيات مدينية لم ترق لهم فكرة التحول إلى فلاحين والاشتغال بالزراعة على الرغم من كل الدعم المادي والتدريب الزراعي.
7- المشروع اليهودي في **اللاذقية** (1883م) فشل لأسباب عديدة، وتم نقل هذه العائلات إلى **قبرص**،وتوجه بعض اليهود نحو **شرق الأردن وسهل حوران** التي يمتد عبر جنوب

البادية السورية وشمال البادية الأردنية. وقد طرحت تلك المنطقة كاحتمال ثان تتوجه إليه بعض العائلات التي فشلت في التأقلم في الساحل السوري. (المرة الثانية عام 1892 من منظمة صهيونية امريكية)

8- تلاقت رغبات الدول الأوروبية (شرقها وغربها) إزاء فكرة "التخلص" من يهود القارة بشكل أو بآخر، والتسابق في تأييد المقترحات التي تبرز هنا وهناك، وتقديم المساعدة لها وإخراجها على شكل تعاطف مع اليهود.

9- التيار الرئيس الآخر داخل التجمعات اليهودية ثم في قلب الصهيونية السياسية لاحقاً تمركزت جهوده **حول تهجير اليهود إلى "أرض إسرائيل"، لاعتبارات عديدة أهمها جاذبية الإسم والجغرافية والبعد الديني وما يوفره ذلك من إمكانيات الحشد والتعبئة وسهولة التهجير.**

10- طرح جوزيف تشمبرلين وزير المستعمرات الانجليزي عام 1903 مشروعًا تهجيريًا لليهود من أوروبا الى (اوغندا/كينيا) لأنه سوف يقلل من مستويات لجوء أولئك اليهود إلى بريطانيا، وهو ما سيحقق له شعبية في أوساط الناخبين البريطانيين، الذين كانت تتفاقم في أوساطهم مشاعر اللّاساميّة وكراهية اللاجئين اليهود.**وبموافقة رئيس الوزراء حينها جيمس بلفور**

11- الميزراحيّين أيّدوا هرتسل **بفكرة (كينيا كوطن قومي)** لقناعتهم الدّينيّة بعدم جواز العودة إلى "أرض الميعاد" قبل تصريح جلي وعلامات واضحة من الرب. أما يهود غرب أوروبا فقد أيّدوا هرتسل وتحمّسوا للفكرة بكونها الأسرع والأكثر عملية لإيجاد وطن يمثل الملجأ الفوري ليهود أوروبا.

12- عُرف الصهيوني تريتش بكونه واحداً من الصهاينة ذوي الأفكار الاحتلالية الاستيطانية القصوى (Zionist Maximalism) إذ كان **يؤمن ويدعو إلى استيطان "فلسطين الكبرى" من قبل اليهود، والتي ضمت بحسب رؤيته فلسطين وشمال سيناء وقبرص معاً!؟**

13- قدم **هرتزل** ردا لشامبرلين يتأسس **على احتقار الأجناس والشعوب الأخرى ومثقل بالعنصرية** بقوله: إنه سوف ينشئ "الشركة الشرقية اليهودية" برأسمال خمسة ملايين جنيه، ويُناط بها استعمار سيناء والعريش وتحويلهما إلى منطقة مزدهرة بجهود سكانها اليهود. وعندها سوف ينشأ اهتمام شديد عند القبارصة لجذب بعض من "مطر الذهب"، أي اليهود، إلى جزيرتهم.

14- أثمرت جهود منظمة أحباء صهيون في الحصول على عرض بالغ الإغراء للجمعية سنة 1903 من قبل **باشا القدس التركي (خلال حكم السلطان عبد الحميد!)**

وجهه إلى مناحم يوسيشكن، أحد قادة منظمة "أحباء صهيون" خلال زيارته الثانية للنقب. وقد تضمن العرض منح المنظمة نصف مليون دونم من أراضي بئر السبع بسعر بخس.

15- استمر التشتت والشد والجذب داخل الحركة الصهيونية بين مقترح فلسطين والمقترحات الأخرى لأزيد من عقدين، ولم يُحسم بشكل شبه نهائي إلا مع صدور التصريح الشهير والمشؤوم لوزير الخارجية البريطاني آثر بلفور عام 1917، والذي حدد موقفاً بريطانياً رسمياً مؤيداً لفكرة هجرة اليهود إلى فلسطين ولاحقاً الاستيلاء عليها .

انتهى الملخص

لجنة التعبئة الفكرية في حركة فتح
بالتعاون مع مركز الانطلاقة للدراسات

"وطن قومي يهودي"... في بلاد الرافدين

الأمر المهم إيراده هنا هو أن **يهود العراق وبغداد رفضوا بشدة المقترحات الصهيونية بجلب يهود أوروبا إلى العراق.** وقد عبّر عن هذا الرفض حاهام يحزكيل أحد قادة ووجهاء يهود بغداد وعضو الوفد البرلماني التركي الذي توجه إلى انكلترا وفرنسا في تلك السنوات. وفي هذه الزيارة صرح يحزكيل بوضوح أن الحكومة التركية ويهود العراق لا يقبلون الفكرة الصهيونية بجلب يهود أوروبا إلى بلدهم.

ارسلت الجمعية اليهودية الاستعمارية Jewish Colonization Association بعثة دراسة ميدانية إلى العراق سنة 1909 لجمع المعلومات والتعرف على البيئة المحلية ورفع تقريرها للجمعية لمواصلة نقاش فكرة إقامة وطن قومي لليهود في بلاد الرافدين. وصلت البعثة إلى العراق ومكثت فيه أكثر من نصف سنة ما بين نوفمبر 1909 ويونيو 1910، وخلال هذه الأشهر الطويلة درست كل ما له علاقة بالعراق من ناحية المصادر الطبيعية والمناخ والزراعة والمياه وخصوبة التربة والسكان وإمكانيات استقبال مئات المهاجرين اليهود من روسيا تحديداً في ذلك الوقت، ثم من سائر البلدان الأوروبية والعالم. **المخطط الأولي كان يتضمن ترحيل مائة ألف يهودي من أوكرانيا إلى العراق، يمثلون بداية لمشروع استيطاني كبير يوفر كياناً ليهود أوروبا.**

كانت بلاد الرافدين قد أصبحت من وقت مبكر على رأس المناطق والبلدان التي رشحتها الصهيونية باعتبارها جغرافية مفتوحة وتحتوي على عوامل مشجعة لإقامة وطن قومي لليهود. إلى جانب العراق **اختبرت الصهيونية عبر بعثات ميدانية أو مفاوضات مع الدول الكبرى والاستعمارية عدة احتمالات أهمها: منطقة العريش في سيناء، الجزء الشرقي من ليبيا، جزء من شرق إفريقيا (عُرف باسم "مقترح أوغندا")، أجزاء من كندا، أجزاء من أستراليا، قبرص، أجزاء من الأرجنتين، أجزاء من أنغولا، وطبعاً فلسطين.**

لكن فلسطين لم تكن الخيار الأول في التفكير الصهيوني المبكر الذي طرحه ليون بنسكر المؤسس الحقيقي للفكرة الصهيونية، قبل ثيودور هرتسل، في كتابه "الانعتاق الذاتي" سنة 1882. بنسكر ركز على أن "عبقرية" الشعب اليهودي أهم من الجغرافية التي من الممكن أن يقيم عليها دولته، ولهذا يمكن أن تبقى فلسطين القبلة الروحية لليهود لكن لا تصلح لأن تكون وطناً لهم لأنها تحت سيطرة قوى أخرى. حتى هرتسل نفسه في كتابه "الدولة اليهودية" كان متردداً بين فلسطين والأرجنتين كاحتمالين لإقامة الوطن القومي لليهود فيهما.

وقد استمر التشتت والشد والجذب داخل الحركة الصهيونية بين مقترح فلسطين والمقترحات الأخرى لأزيد من عقدين، ولم يُحسم بشكل شبه نهائي إلا مع صدور التصريح الشهير والمشؤوم لوزير الخارجية البريطاني آثر بلفور عام 1917، والذي حدد موقفاً بريطانياً رسمياً مؤيداً لفكرة هجرة اليهود إلى فلسطين ولاحقاً الاستيلاء عليها .

فكرة إقامة وطن قومي لليهود في بلاد الرافدين، أو في Aram Naharaim وهو التعبير التوراتي الذي درج استخدامه آنذاك في المراسلات الصهيونية والنقاشات، برزت لأول مرة في أواخر سنة 1899 خلال لقاء بين السفير الأمريكي في استانبول (أوسكار شتراوس، يهودي الديانة) وثيودور هرتسل. وبقيت تلك الفكرة على الأجندة الصهيونية وتقدمت على كثير من المقترحات الأخرى بسبب القرب الجغرافي للعراق مع فلسطين، ونظراً للبعد الديني أيضاً بكون العراق أصل الديانة الإبراهيمية والمكان الذي انطلق منه إبراهيم إلى فلسطين (هذا حسب التوراة-مركز الانطلاقة). وكان أحد أهم المتحمسين لفكرة استعمار بلاد ما بين النهرين من قبل يهود العالم الصهيوني الشهير يسرائيل زانغويل مؤسس وزعيم ما كان يعرف بالمنظمة اليهودية الإقليمية (أو التوطينية .Jewish Territorial Organization (وكان زانغويل ومنظمته على خلاف مع تيار المنظمة الصهيونية الذي ركز كل جهوده على فلسطين، واعتبر زانغويل أن الضرورة العملية وإنقاذ يهود أوروبا وروسيا من الاضطهاد يجب أن يدفع الحركة الصهيونية للبحث عن بديل لفلسطين حتى لو كان مؤقتاً، وليس أفضل ولا أقرب من العراق. بل إن زانغويل اعتبر أن تعبير "بلاد الرافدين" يشمل جغرافية المنطقة الواقعة بين فلسطين ونهر دجلة، وبالتالي فإن إقامة وطن لليهود في طرف من تلك المنطقة سوف يتيح التطور والتوسع تدريجياً باتجاه فلسطين. لكن حتى داخل "المنظمة الصهيونية نفسها والتي اختلف معه زانغويل كانت هناك قناعة كبيرة بفكرة استيطان العراق من قبل اليهود، وكان الرجل الثالث في المنظمة، وهو أوتو واربيرغ أحد أهم القيادات التي روجت واشتغلت على هذه الفكرة. وتفاوض مع مهندسين زراعيين ومساحين لدراسة الأرض ميدانياً .

امتلك زانغويل تأثيراً كبيراً سواء داخل الحركة الصهيونية او خارجها، كما تمتع بشبكة علاقات دولية قوية حتى داخل الدولة العثمانية. وجاء من خلفية يهودية أرثوذكسية لأب روسي وأم بولندية هاجرا إلى بريطانيا. وفي لندن بزغ اسمه ككاتب كوميدي ناجح وفرض نفسه في دوائر الثقافة والإعلام والسياسة. وقد **تبنى نظرة استعمارية واستعلائية تجاه الشعوب الأخرى ولم يكن يتردد في استخدام أوصاف عنصرية إزاء السكان المحليين الذين يتواجدون في البلدان والمناطق التي كانت منظمته تدرسها كجهات محتملة لإقامة الدولة اليهودية عليها.** وبالنسبة له فإن الحل الحاسم لأي سكان أصليين قد يعيقون مشروع هجرة اليهود ودولتهم هو

الترحيل القسري وبالقوة. ولم يكن يؤمن بالإبقاء حتى على أية أقلية من السكان الأصليين ضمن المجموعة السكانية الأكبر التي يجب أن تكون يهودية صرفة .

وحول سكان العراق ومآلاتهم والنظرة إليهم في حال أقيمت الدولة اليهودية هناك كانت أفكار زانغويل تعج بالعنصرية والاحتقار وعدم اللامبالاة. وفي صيف 1909 وقف خطيباً في مدينة ليدز البريطانية وسط أنصاره ليقول: "...أنتم تعلمون أن المنظمة اليهودية الإقليمية قد اختارت بلاد الرافدين كي ينظر فيها الشعب اليهودي كخيار أول. ما هي بلاد الرافدين هذه؟ إنها جزء مهمل من الإمبراطورية التركية ليس فيه إلا عدد قليل من المدن والسكان، بعضهم استوطن سلمياً لكن الغالبية بدو متنقلين متوحشين ويخضعون للسيطرة التركية اسمياً فقط... إنها أرض غير مأهولة... لا تساوي شيئاً في السوق! ومن الذي سيحرث أرض بلاد الرافدين (ميزوبوتاميا)؟ من الذي سيبني سكك القطارات، والأهم من الذي سيركبها؟ هل سيركبها الأكراد والبدو؟ هل سيقوم هؤلاء ببيع خيولهم العربية ويستقرون في المزارع؟". عبر زانغويل عن النظرة الاحتقارية الاستشراقية والكولونيالية التي استبطنتها الصهيونية بشقيها حين تحدثت عن الشعوب والجماعات خارج سياق "الأسياد الأوروبين" المتسيدين. **وقد اعتبر الزعماء الصهاينة أنفسهم وحركتهم جزءاً من الحضارة الأوروبية التي لها الحق أن تستعمر حيث شاءت على وجه الأرض من دون أي اعتبار لشعوب البلدان التي تُستغل وتُستعمر. ويذكر هنا أن هرتسل نفسه كان التمثيل الأهم لهذا الاستبطان الكولونيالي في التفكير الصهيوني، وكان قد سجل بوضوح في كتابه "الدولة اليهودية" (1896) بأن بناء دولة يهودية في فلسطين سوف يمثل "جزءاً من الجدار الحامي لأوروبا في آسيا، وقاعدة أمامية للحضارة في وجه البربرية !"**

الأمر المهم إيراده هنا هو أن يهود العراق وبغداد رفضوا بشدة المقترحات الصهيونية بجلب يهود أوروبا إلى العراق. وقد عبر عن هذا الرفض حاهام يحزكيل أحد قادة ووجهاء يهود بغداد وعضو الوفد البرلماني التركي الذي توجه إلى انكلترا وفرنسا في تلك السنوات. وفي هذه الزيارة صرح يحزكيل بوضوح أن الحكومة التركية ويهود العراق لا يقبلون الفكرة الصهيونية بجلب يهود أوروبا إلى بلدهم. وأن هذا الرفض ينسجم مع هويته وهويتهم، فهو يرى نفسه يهودي الديانة، عربي الثقافة، عراقي القومية، وبالتالي فإن اليهودية من هذا المنظور لا تتعارض مع العروبة .

بعد صدور وعد بلفور حُسم النقاش داخل الحركة الصهيونية بشقيها، المتوجه نحو فلسطين حصرياً، والمتوجه نحو مناطق أخرى عموماً. وفي إثر ذلك أغلقت ملفات المقترحات المتعددة لبناء كيان يهودي عليها، بما في ذلك مُقترح العراق. لكن العراق ظل دائماً (وحتى الآن) في

دائرة الهدف الصهيونية، حيث أعيد فتح ملف العراق من قبل الصهيونية الإقليمية (التوطينية) بعد أن وحدت جهودها من الشق الثاني من الصهيونية وتحول تركيزها الكلي نحو فلسطين. وإعادة فتح الملف هذه المرة كانت بهدف معالجة إحدى المعضلات الاساسية التي تواجه الصهيونية في فلسطين، وهي وجود شعب متجذر فيها ولا يمكن تجاوزه. فكان الحل الذي عرضه زانغويل هو **ترحيل الفلسطينيين إلى بلاد الرافدين وبالتالي إفراغ الأرض وتجهيزها لتستقبل غالبية يهودية من أوروبا.** وجادل زانغويل بأن هذا الترحيل هو أفضل بكثير من العيش في احتكاك وصراع متبادل مدى الحياة، وهو بمثابة إحداث ألم كبير مرة واحدة بدلاً من الآلام المتواصلة، تماماً مثل "خلع الضرس المؤلم"، الذي يزيل الألم مرة واحدة .

"وطن قومي يهودي"... في سورية وقبرص

استمرت المستوطنة "القبرصية الأولى" عدة سنوات بعد تأسيسها عام 1882 لكن ما لبث مشروعها أن فشل بسبب عدم حماس اليهود للهجرة إليها، وفشل مستوطنوها في تحويل الأرض "إلى جنة زراعية" مغرية للآخرين. كان معظم اليهود الأوروبيين راغبين في الهجرة إما إلى أوروبا الغربية أو الولايات المتحدة، ومعظمهم من خلفيات مدينية لم ترق لهم فكرة التحول إلى فلاحين والاشتغال بالزراعة على الرغم من كل الدعم المادي والتدريب الزراعي.

ضمن بحثها المحموم عن أراض تستعمرها وترحل إليها يهود أوروبا، وضعت المنظمات اليهودية الأوروبية وعلى رأسها البريطانية جزيرة قبرص كأحد الجهات المغرية والمحتملة. بدأت تلك المحاولات مباشرة بعد معاهدة برلين بين القوى الأوروبية والسلطنة العثمانية سنة 1878 في أعقاب نهاية الحرب العثمانية الروسية، والتي كان من ضمنها انتقال قبرص إلى السيطرة البريطانية. المثير في فكرة الاستيطان اليهودي في قبرص أن بعضها انطلق من فلسطين وتحديداً من خلال نشاط أرملة القنصل البريطاني في القدس جيمس فن، (اليزابث ـ آن فن)، في أواسط القرن التاسع عشر، والذي كان ذاته من غلاة المسيحية الصهيونية ومؤيدي جلب اليهود إلى فلسطين في أواسط القرن التاسع عشر (أي قبل تبلور المشروع الصهيوني بشكله السياسي والإيديولوجي على نحو نصف قرن تقريباً). وقد **تواصل الوجود اليهودي الاستيطاني في قبرص من نَوَياتها الأولى وظل في مد وجزر إلى سنة 1939، وإن كان قد**

ضعف تدريجياً ومعه فقدت فكرة الاستيطان في الجزيرة بريقها والمتحمسين لها بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وسقوط فلسطين في أيدي بريطانيا وفتح أبواب "أرض الميعاد" ليهود العالم .

قام مشروع تهجير اليهود إلى فلسطين على **ثلاث روافع أساسية** خلال نصف القرن الحاسم الذي توزع على الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين.

أولها، اندفاعة المسيحية الصهيونية (ومنظمات الألفيات) التي آمنت بضرورة عودة اليهود إلى فلسطين كشرط لظهور المسيح، وأهمها كانت بريطانية مثل Millenarian British Associationومرة أخرى سبقت هذه المنظمات كل التفكير الصهيوني السياسي إزاء فكرة توطين اليهود في فلسطين.

والرافعة الثانية كانت انتشار السامية في أوروبا والرغبة المعلنة أو الدفينة لدى الدول الغربية للتخلص من "المسألة اليهودية" وإيجاد حل لها خارج الفضاء الأوروبي، بمسوغات ودعاوى مساعدة اليهود. حكومات ونخب روسيا وألمانيا وكثير من الدول الأوروبية الشرقية كانت تستقبل أي فكرة حول تهجير اليهود إلى خارج القارة بحماس معلن أو خفي، لأن ذلك يخلصها من اليهود ومن اللاسامية التي تعصف وتُتهم به.

بالتوازي مع ذلك، كانت بلدان أوروبا الغربية مثل بريطانيا وفرنسا (مُضافاً إليها الولايات المتحدة) حيث كمنت مشاعر العداء للسامية تحت سطح الدعاوى الليبرالية والحداثة ولم تكن ظاهرة ومباشرة، تخشى من هجرات اليهود المتتالية القادمة من روسيا وأوروبا الشرقية ولاحقاً ألمانيا. وهكذا **تلاقت رغبات الدول الأوروبية (شرقها وغربها) إزاء فكرة "التخلص" من يهود القارة بشكل أو بآخر، والتسابق في تأييد المقترحات التي تبرز هنا وهناك، وتقديم المساعدة لها وإخراجها على شكل تعاطف مع اليهود.**

الرافعة الثالثة هي النظرة الكولونيالية والإمبريالية لأي استيطان أو كيان يهودي في البلدان والمناطق المُستعمرة على أنه أداة في يد الدولة الاستعمارية المعنية المُسيطرة (وهي النظرة التي تبنتها واستبطنتها الصهيونية وقبلها معظم المشروعات الاستيطانية اليهودية ذاتها). فإن نشأ مثلاً كيان يهودي في شرق إفريقيا، أو في العراق، أو في سيناء، أو في فلسطين، يتعرف ذلك الكيان تلقائياً، ذاتيا ومن الآخرين، بكونه امتداداً كولونيالياً لبريطانيا وخادماً لها بشكل مباشر وحريصا على تنفيذ مصالحها. تفيدنا النظرة الإجمالية هذه في موضعة الصهيونية ومشروعاتها في السياقات الأوسع، وتُحرر الفهم من فكرة "عبقرية الصهيونية" وقادتها و"دقة تنظيمهم وتخطيطهم". ذلك أنه من دون الدور المركزي والتأسيسي لتلك السياقات الدولية

والإمبريالية التي وفرت وفي لحظة تاريخية فاصلة دعماً مذهلاً ومتوافقا عليه من قبل الدول الكبرى، لما أمكن رؤية أي نجاح للصهيونية مهما بلغت قوتها الذاتية وتخطيطها. وفي ضوء فهم ما سبق يمكن قراءة المشروعات الاستيطانية اليهودية في العالم من زوايا أكثر شمولية، ومنها ما تناقشه هذه المقالة.

في سنة 1882 تأسس "صندوق استعمار سورية" في بريطانيا وكانت اليزابث ـ آن فن أحد أهم الفاعلين فيه. ورغم أن هدف الصندوق كان تشجيع ودعم الهجرة إلى فلسطين تحديداً لكنه نشط أيضاً في استقدام يهود أوروبيين إلى سورية ثم قبرص. وفي العام الذي تلا التأسيس تمكن الصندوق وعبر دعم حثيث من نائب القنصل البريطاني في اللاذقية من شراء مساحات مُقدرة في المنطقة (التي كانت ما تزال خاضعة للحكم العثماني آنذاك)، وتم جلب أربعين عائلة يهودية إليها لزراعتها واستعمارها. لكن **المشروع اليهودي في اللاذقية فشل لأسباب عديدة، وتم نقل هذه العائلات إلى قبرص** حيث تم جمعها مع عشرات من العائلات الأخرى التي قدمت من أوروبا، في مساحة من الأرض تجاوزت 25 هكتاراً من الأراضي الزراعية الخصبة التي اشتراها الصندوق قريباً من مدينة بافوس الشاطئية في الجزيرة. وعلى وجه التحديد أقيمت في مستوطنة يهودية في منطقة المنطقة كوكليا استقبلت يهوداً من روسيا ورومانيا .

بالتوازي مع ذلك الاستيطان "القبرصي" وفي نفس الفترة الزمنية وعلى إثر الصعوبات التي واجهتها المنظمات اليهودية في تملك أراض في فلسطين، **توجه بعض اليهود نحو شرق الأردن وسهل حوران التي يمتد عبر جنوب البادية السورية وشمال البادية الأردنية. وقد طرحت تلك المنطقة كاحتمال ثان تتوجه إليه بعض العائلات التي فشلت في التأقلم في الساحل السوري.**

وفي سنة 1892 تأسست منظمة يهودية جديدة، في شيكاغو هذه المرة، اسمها "شايفي صهيون" هدفها الاستيطان في سورية وشرق الأردن وفي سهل حوران تحديداً. وفي وقت لاحق تواصل الاهتمام الصهيوني في سورية وتركز على الأراضي التي اشتراها اللورد البريطاني إدمون روتشيلد في سهل حوران أيضاً في عشرينيات القرن العشرين بهدف توطين يهود من بريطانيا فيها. **كانت سورية عمليا تحت السيطرة الاستعمارية الفرنسية، وقد رفض الفرنسيون فكرة جلب يهود بريطانيين إلى المنطقة، مما اضطر روتشيلد للتواصل مع يهود دمشق العرب لإقناعهم بالاستيطان في حوران، كمرحلة أولى نحو فلسطين. لم يلق ذلك المُقترح آذاناً صاغية لدى يهود دمشق وانتهى عملياً إلى الفشل.** لكنه عاد وبرز ثانية في ثلاثينيات القرن العشرين على خلفية استقواء المنظمات الصهيونية في فلسطين وتمأسسها. وقد عمل بعض تلك المنظمات، البالماخ تحديداً، على اختراق يهود سورية وخاصة الجيل الشاب

وتنظيم البعض لإعادة تنشيط فكرة الاستيطان في حوران وتحضيرها هذه المرة لاستقبال يهود روس كمحطة أولية لنقلهم إلى فلسطين. ويذكر أن قيادات اليهود السوريين وقفت بقوة ضد النشاط السري لهذه المنظمات في الأوساط الدمشقية وأبلغت السلطات عن ذلك واعتقل بعض الجواسيس من تلك المنظمات. ومن المهم الإشارة هنا إلى أن **اليهود الغربيين (الأشكناز البيض) لم يهتموا باليهود العرب أساساً، واعتبروهم عرباً ومتخلفين، ولم يتم أي تواصل جدي معهم إلا في أواخر عشرينيات القرن الماضي. وكان الاهتمام الأولي بهم وظائفياً وأمنياً وبهدف تجنيدهم جواسيس في الأوساط العربية** سواء في بلدانهم الأصلية أو في فلسطين نظراً لإتقانهم العربية وبسبب ملامحهم الحنطية التي تساعدهم على الاندماج في أي أوساط عربية، وقد بدأ هذا الجهد التجنيدي والتخريبي مع يهود سورية ثم يهود العراق لاحقاً .

بالعودة إلى قبرص، استهوت فكرة الاستيطان في الجزيرة الجمعيات اليهودية التي أرادت تفادي فكرة استهداف فلسطين لما كان يترتب على هذه الأخيرة من عقبات وصدام متوقع سواء مع الحكم العثماني أو العرب. وكانت قد تبلورت قناعة مبكرة عند الكثيرين منهم بأن فلسطين مأهولة بالسكان وغير صالح لهجرة اليهود إليها (كما أشارت مقالة شهيرة لأحد أهم قادة الصهيونية (الثقافية) "آحاد حاعام" الأوكراني بعد أن زار فلسطين سنة 1891. ويُذكر أن هذه التوجهات نحو مناطق غير فلسطين ظلت قوية وفاعلة في قلب التجمعات اليهودية ولاحقاً في قلب الفكرة الصهيونية ذاتها، وتبلورت على شكل فاعل سياسي بعد المؤتمر الصهيوني الثالث سنة 1899، تحت اسم "المنظمة اليهودية التوطينية Jewish Territorial Organization" والتي أسسها وقادها إسرائيل زانغويل. لكن في نفس الوقت وإلى جانب هؤلاء، فإن **التيار الرئيس الثاني داخل التجمعات اليهودية ثم في قلب الصهيونية السياسية لاحقاً تمركزت جهوده حول تهجير اليهود إلى "أرض إسرائيل"، لاعتبارات عديدة أهمها جاذبية الإسم والجغرافية والبعد الديني وما يوفره ذلك من إمكانيات الحشد والتعبئة وسهولة التهجير.** وهكذا قويت فكرة الاستيطان في قبرص عند التيارين، كونها قريبة من "أرض إسرائيل" وتمثل محطة للانتقال إلى فلسطين عند تيار المتحمسين لها، وكونها أيضاً ليست "أرض الميعاد" عند التيار الآخر الذي لم يتحمس لفكرة فلسطين وفضل دوماً الابتعاد عنها كخيار .

استمرت المستوطنة "القبرصية الأولى" عدة سنوات بعد تأسيسها عام 1882 لكن ما لبث مشروعها أن فشل بسبب عدم حماس اليهود للهجرة إليها، وفشل مستوطنوها في تحويل الأرض "إلى جنة زراعية" مغرية للآخرين. كان معظم اليهود الأوروبيين راغبين في الهجرة إما إلى أوروبا الغربية أو الولايات المتحدة، ومعظمهم من خلفيات مدينية لم ترق لهم فكرة

التحول إلى فلاحين والاشتغال بالزراعة على الرغم من كل الدعم المادي والتدريب الزراعي. في تلك السنوات، أي عقد ثمانينيات القرن التاسع عشر كاد نفس الفشل يضرب بعض تجمعات اليشوف اليهودية في الجليل، مثل زخرون ياكوف وروش بيناح، بسبب عزوف اليهود عن الزراعة وشكواهم من وعورة الأرض وعدم ملاءمتها للحرث والزراعة. لكن الوجود المديني في فلسطين وقرب تلك التجمعات من مدن (فلسطينية) قائمة كان أحد الأسباب التي أقنعت يهودها على البقاء (وهذا لا ينقض وحسب الدعاية الصهيونية بأن فلسطين كانت أرضاً بلا شعب، **بل ويشير إلى أن الطبيعية المدينية وليس الصحراوية الخالية من الحياة هي التي جذبت اليهود) .**

ظلت قبرص عنواناً للشد والجذب والتوسع والانكماش لجهة استقطاب يهود جدد إليها، وشهد المشروع ذروة نجاحه عندما تسلمت جمعية الاستعمار اليهودي Jewish Colonization Associationالأراضي التي اشترتها المنظمات اليهودية في سنوات سابقة. وعملت الجمعية على توسعة الوجود الاستيطاني إلى مساحات أخرى بين مدينتي لارنكا وليماسول، في منطقة مارغو. ومن المهم الإشارة هنا إلى أن هذه الجمعية التي مثلت الذراع الاستيطاني الأهم في مشروعات الهجرات اليهودية وإقامة المستعمرات كان جلّ اهتمامها متركزاً على مناطق غير فلسطين حتى سنة 1896. بعد ذلك التاريخ والذي لحقه قيام المؤتمر الصهيوني الأول في بازل سنة 1897 وبعده المنظمة الصهيونية العالمية، انقلب ميزان الاهتمام وتصدرت فلسطين أجندة معظم المنظمات اليهودية .

وطن قومي لليهود... في كينيا (أوغندا)

"جابوتنسكي" نفسه وفي رحلة بالطائرة من جنوب إفريقيا سنة١٩٣٧، مرّت طويلًا فوق كينيا في طريق العودة إلى أوروبا، بهَرَه جمال البلاد وخضرتها وامتداد أرضها السهلية، ونظر إلى المنطقة التي كانت محطّ المقترح البريطاني. ونُقل عنه قوله حينها: "أعرف أنّه علينا الآن أن نُركّز كل بوصلتنا على فلسطين، لكن لا أملك إلّا أن أتساءل إن كنّا قد أخطأنا في رفضنا لفكرة أن تكون إسرائيل هنا ووفرنا الكثير من الوقت ."

في المؤتمر اليهودي السادس في بازل سنة ١٩٠٣، **صدم ثيودور هرتسل رئيس المنظمة الصهيونية العالمية مئات الحضور بمقترح قدمه له جوزيف شامبرلين وزير المستعمرات في الحكومة البريطانية آنذاك قبل ثلاثة أشهر من انعقاد المؤتمر. تضمّن المقترح إقامة منطقة**

حكم ذاتي لليهود في شرق إفريقيا، وهو المقترح الذي عرف لاحقًا بـ"خطة أوغندا". هذه التّسمية المشتهرة للخطة تنطوي على وصف غير دقيق جغرافيًا لأن تلك الأراضي الخصبة، وهي هضبة شاسعة وسهلية قريبة من بحيرة فكتوريا، ستصبح بعد الاستقلالات الأفريقية جزءًا من دولة كينيا، وتعرف باسم "أوسين غيشو."

انطلق اقتراح شامبرلين من عدة مصالح امبريالية وسياسية بحتة، وجاء بعد أكثر من لقاء مع هرتسل الذي طلب في البداية منح اليهود مكانًا في قبرص أو سيناء، وتحديدًا العريش. فمن ناحية أولى وبعد زيارة شهيرة له لشرق إفريقيا في أواخر عام ١٩٠٢ انطلق فيها من مومباسا على الساحل الكيني قاطعًا الأراضي الكينية ثم الأوغندية، انبهر شامبرلين بجمال وغنى المنطقة ونُقل عنه قوله "إن هذه البلاد هي أراضٍ للرجل الأبيض"، وترسّخت في ذهنه فكرة استيطان وامتلاك تلك المناطق وليس فقط استعمارها لفترة ثم الرحيل عنها. تُرجمت هذه الفكرة على شكل سياسة حكوميّة **تبنتها وزارة آرثر بلفور، الذي كان رئيس الوزراء آنذاك،** ولأجل تحقيق هذا الطموح الاستيطاني، كان لا بدّ من استجلاب سكان "بيض" يستعمرونها ويتملكون فيها وتصبح وطنًا لهم، وبالتالي تتعزّز السيطرة البريطانية في شرق إفريقيا.

لم يكن من السهل إقناع ونقل كتلة سكانية كافية من الإنكليز للانتقال هناك، أو حتى إغراء أجناس أخرى بيضاء أو غير بيضاء لكن تدور في فلك الإمبرطورية البريطانية، مثل أن يكونوا من فنلندا او الهند، كما اقتُرح. بيد أنّ المجموعة التي توضّح فورًا أنّها الاسهل لجهة التحكم فيها وتهجيرها وتوظيفها فكانت يهود أوروبا الشرقية وروسيا الواقعة تحت الاضطهاد والتمييز في تلك البلدان. ومن ناحية ثانية فإن **مشروعًا تهجيريًا لليهود من أوروبا على هذا النحو سوف يقلل من مستويات لجوء أولئك اليهود إلى بريطانيا، وهو ما سيحقق له شعبية في أوساط الناخبين البريطانيين** الذين كانت تتفاقم في أوساطهم مشاعر اللّاساميّة وكراهية اللاجئين اليهود. وفي ذات الوقت الذي ستظهر فيه بريطانيا أمام الأوروبيين جميعًا بأنّها صاحبة اليد العليا في حل "المسألة اليهودية"، فإنها سوف تموضعهم لخدمتها في شرق إفريقيا لكونها هي وليس غيرها من يملك شريان الحياة لمثل مشروع كهذا.

كان المستوطنون الانكليز البيض في كينيا أشدّ المعارضين لفكرة منح اليهود وطنًا قوميًّا هناك، وهم الذين تملّكوا الأراضي الأكثر خصوبةً والأفضل في البلاد. وأطلقوا حملة سياسية وإعلامية كبيرة ضد المشروع، تمثلت في عرائض ورسائل إلى الصحافة البريطانية في لندن، إضافةً إلى ما حفلت به جريدتهم الأكثر تأثيرًا في نيروبي "أفريكا ستاندرد" من مقالات متواصلة ضد الفكرة. **وقد كشفت تلك الحملة مقدار الكراهية لليهود كجنس وفضحت عمق اللاسامية المتجذرة في أوساط المستوطنين البيض الذين وصفوا اليهود بكل الأوصاف**

الاحتقارية وبأنهم "حثالة الأرض" وأن قدومهم إلى كينيا سوف يدمر نقاء المشروع الاستيطاني الأبيض. كما تصدّرت الكنيسة الإنكليزية أيضًا حملة التحريض ضد اليهود بحجّة أن مصلحة المسيحية في كينيا تقتضي بعدم قدوم هذا الجنس المغضوب عليه من الرب إلى البلاد .

تحمّس هرتسل للمشروع ورأى فيه إنجازًا هائلًا إذ إن فكرة وطن قومي لليهود يتمكنون فيه من حكم أنفسهم بأنفسهم لم تصبح على أجندة الدول الكبرى وحسب، بل وفي أقل من ست سنوات تجسدت بالفعل على شكل عرضٍ مغرٍ من الإمبرطورية البريطانية نفسها. وبالفعل، فقد تضمن العرض البريطاني إقامة منطقة خاصة باليهود وتُدار عبر حكومة يهودية وفقًا لما يراه اليهود من قوانين وتشريعات، واشترط هرتسل أيضًا أن تتحكم تلك الحكومة بقوانين الهجرة والدخول إلى المنطقة المعنية. آنذاك كان هرتسل مُحبَطًا بسبب تعثّر محاولاته في إقناع السلطان عبد الحميد بفكرة السماح لليهود بالاستيطان في فلسطين بشكلٍ جماعي مقابل مساعدة الدولة العثمانية المُتهالكة في تسديد ديونها الباهظة للدّول الأوروبية. لهذا فقد انطلق تأييده لـ"خطة أوغندا"، ومعه كثير من الرموز اليهودية القيادية آنذاك مثل ليو بنسكر واسرائيل زانغويل، من أنّ الهدف الأكثر إلحاحًا على الحركة الصهيونية كان إيجاد ملجئٍ فوري ليهود أوروبا الشرقية، وخاصةً روسيا وبولندا، بسبب تصاعد اللاسامية ضدهم وليس انتظار ما بدا وكأنه بعيد المنال، وهو فلسطين .

في المؤتمر المذكور وإثر عرض هرتسل المقترح صُدم الكثيرون وأطلقوا ضدّه معارضة شرسة إلى درجة اتّهام هرتزل بخيانة المشروع الصهيوني وترك حلم فلسطين. وكان يهود شرق أوروبا أشد المعارضين رغم ان **الميزراحيّين منهم أيّدوا هرتسل لقناعتهم الدّينيّة بعدم جواز العودة إلى "أرض الميعاد" قبل تصريح جلي وعلامات واضحة من الرب. أما يهود غرب أوروبا فقد أيّدوا هرتسل وتحمّسوا للفكرة بكونها الأسرع والأكثر عملية لإيجاد وطن يمثل الملجأ الفوري ليهود أوروبا .**

رغم المعارضة الواسعة للفكرة إلا أنّ هرتسل أقنع المؤتَمِرين بالموافقة على إرسال لجنة استكشاف إلى كينيا تدرس الوضع على الأرض وتقدّم تقريرها للمؤتمر السابع، الذي خُوّل البت في الموضوع إليه، وهو ما حدث. وقد انشغل يهود أوروبا بمقترح أوغندا لما يقارب السّنتين وأشعل النقاشُ حوله مرارت واتهامات بل وانشقاقات في قلب الصهيونية. ويذهب البعض للقول بأنّ موت هرتسل المفاجيء، وقبل انعقاد المؤتمر السابع سنة ١٩٠٥ يعود إلى الضغط النفسي والجسدي الذي تعرّض له وسط ذلك النقاش.

جاء تقرير اللجنة الميدانية المكوّنة من ثلاثة خبراء خلافيًا، حيث أيّد المقترح واحدًا منهم فيما عارضه اثنان. والمفارقة شديدة الحدة تمثلت في التّسويغ الذي قدّمه عضوا اللجنة لتفسير رفضهم المقترَح، وهو كون الأرض الأفريقية خالية من السكان وغير معمورة أو مزروعة ولا تصلح بالتالي لأن تكون وطنًا لليهود. **وكأن ما يصلح لأن يكون وطنًا لهم يجب أن يكون مأهولًا بالسّكّان - على خلاف الأطروحة الزائفة التي ظلت تردد بأن اليهود يبحثون عن أرض بلا شعب لهم كشعب بلا أرض... ويستهدفون فلسطين لأنها تتوافق مع تلك الرؤية .**

كان زئيف جابوتنسكي، أحد عُتاة اليمين الصهيوني والأب الروحي للصهيونية التصحيحيّة المُنشقّة عن المنظّمة الصهيونية العالميّة، متردّدًا إزاء مقترح شرق إفريقيا، ونُقل عنه القول بأن ليس لديه أيّ حبّ رومانسي من نوع خاص لفلسطين، لكنّه مولَعٌ بفكرة الوطن اليهودي. جابوتسكي، ذو التعليم العالي والنزعة البرجوازية، كان غربي الهوى رغم ولادته ونشأته في أوديسا في أوكرانيا، وكان علمانيًا يميل إلى فكرة إيجاد ملجأ لليهود بالسرعة الممكنة، وليس بالضرورة في فلسطين. لكنّه حسم أمره باتّجاه فلسطين لقناعته بأن البعد الديني هو الوحيد الّذي يمكن أن يحرّض يهود أوروبا الشرقيين على الهجرة. لذلك، اصطفّ جابوتنسكي في نهاية المطاف مع الرّافضين لفكرة شرق إفريقيا، التي ماتت عمليًا سنة ١٩٠٥ .

جابوتنسكي نفسه وفي رحلة بالطائرة من جنوب إفريقيا سنة١٩٣٧، مرّت طويلًا فوق كينيا في طريق العودة إلى أوروبا، بهَرَه جمال البلاد وخضرتها وامتداد أرضها السهلية، ونظر إلى المنطقة التي كانت محطّ المقترح البريطاني. ونُقل عنه قوله حينها: "أعرف أنّه علينا الآن أن نُركّز كل بوصلتنا على فلسطين، لكن لا أملك إلّا أن أتساءل إن كنّا قد أخطأنا في رفضنا لفكرة أن تكون إسرائيل هنا ووفرنا الكثير من الوقت ."

في المقابل ومن ضمن القيادات الثانوية التي أيّدت "خطة أوغندا" بقوة كان هناك إليعازر غولدريتش الذي كان يُسمّي نفسه "أمير القدس"، وهو شقيق رئيس الاتّحاد الصهيوني الأفريقي. كان غولدريتش مقتنعا بأن الأرض الحقيقية والأفضل لإقامة وطن قومي لليهود عليها تقع ما بين نهر النيل والفرات والتي تمتد لتتضمن أيضًا شرق إفريقيا (جنوبًا من مصر)، وشهدت ولادة الإسرائيليّين الأوائل.

غولدريتش صبّ غضبه على المؤتمر الصهيوني السابع الذي رفض خطة شرق إفريقيا، واتّهم المنظمة الصهيونية بالخداع واعتماد تقرير غير كاف من قبل البعثة التي أُرسلت لكينيا وزارت جزءًا صغيرًا فقط من الأرض الّتي منحتها الحكومة البريطانية لليهود. وكانت تقارير ذكرت أن اللجنة الثلاثية الميدانية تم تضليلها من قبل المستوطنين البيض في كينيا وأُخذت إلى أرض

جرداء منفّرة، وليس إلى الأرض الأصلية الواردة في الوعد البريطاني. **وصف غولدريتش بعض أعضاء المؤتمر بالمتنمّرين والعاهرات الذين تسببوا في وفاة هرتسل بسبب استحواذ فكرة فلسطين على عقلهم.** إضافةً إلى تأييد غولدريتش، كان الحماس والتأييد الأهم لـ"خطة أوغندا" قد جاء من المفكر الصهيوني المؤثر اسرائيل زانغويل، الذي رأى في رفض المؤتمر السابع للخطة خطيئة كبرى، خاصة وأنّ المقترح يأتي من بريطانيا وفي عرض رسمي لليهود لم يتسلموه من أية قوة عظمى في كل تاريخ الشتات اليهودي. وجادل بأن الحال اليهودي مقلوب رأسًا على عقب، ففي حين أن الوطن الأم هو الذي يُنشئ المستعمرة، أو المستعمرات، كما في الحالات الأوروبية الكولونيالية التقليدية، فإن الحالة اليهودية مُختلفة إذ أنّ المُستعمرة هي الّتي سوف تُنشئ الوطن الأم.

انشقّ زانغويل عن المنظمة الصّهيونيّة العالمية وأسّس منظّمة خاصّة به هدفها البحث عن أرض لليهود غير فلسطين. وشرع في جهود فردية مع وزارة الخارجية البريطانية لإعادة فتح ملف كينيا - أوغندا، وضمّت بعض مراسلاته مع الوزارة رسائل استنجاد من يهود أوكرانيا بسبب تعرضهم لقمع متزايد من الحكومة الروسية. واستغاثت إحدى تلك الرسائل بزانغويل وحثّته على التّواصل مع الملك البريطاني لمنحهم الأرض في أوغندا: "الأمة اليهودية بأسرها تريد أوغندا... حياتنا ليست آمنة ونريد أن نغادر هذه الأرض الملوثة بالدماء". ظلّت "خطة أوغندا"، وبرغم رفض المنظمة الصهيونية العالمية رسميًا لها، تتردّد بقوة على أجندات الكثير من الصهاينة ولم تذوِ بشكل نهائي إلّا مع صدور تصريح بلفور المشؤوم والشهير عام ١٩١٧.

وطن قومي لليهود... في العريش (وسيناء)

بيد أن أفكار هرتزل وسواه ومخططات الاستيطان في سيناء وإقامة وطن قومي لليهود فيها مكملة ومتماهية مع جهود يهودية سابقة للاستيطان في صحراء النقب الفلسطينية وشراء أراض فيها. وهذه الجهود تعود إلى سنة ١٨٨٢ عندما زارت بعثة من منظمة "أحباء صهيون" المنطقة لاستكشاف إمكانية شراء وتملك أراض فيها.

تعود البدايات الفعلية لفكرة محاولة الحصول على كيان قومي لليهود في سيناء إلى سنة ١٨٩٨ حين زار تيودور هرتزل، رئيس المنظمة الصهيونية، مصر وفلسطين في أكتوبر من تلك السنة. رتب هرتزل رحلته تلك على عجل حتى يقابل القيصر الألماني وليام الثاني في إستانبول أولاً، ثم في فلسطين لاحقاً خلال رحلة القيصر المُخطط لها إلى الأراضي المقدسة. وبالفعل استطاع هرتزل مقابلة القيصر في إستانبول وشرح له طموحاته بالحصول على تفويض من الدولة العثمانية لإستيطان أراض فيها سواء في سيناء أو فلسطين، ووعده بأن اي كيان يهودي في الشرق سوف يكون تابعاً لألمانيا وسوف يعمل على تفريغ ألمانيا من كل

العناصر المشاغبة والثورية (اليهودية) التي تزعج القيصر، الذي راقت له الفكرة نظرياً. استمزج وليام الثاني المُقترح الذي قد يؤدي ليس فقط إلى التخلص من كتلة يهودية كبيرة وتهجيرها من ألمانيا، بل وأيضاً استثمار اليهود في الشرق لصالح توسيع النفوذ الألماني. في وقت لاحق خفت حماس القيصر للفكرة إثر إعلامه بأن مشروعاً كهذا سوف يثير غضب السلطان العثماني وقد يزعزع التحالف معه .

في رحلته تلك استقل هرتزل قطار "الشرق السريع" إلى إستانبول التي منها سوف يبحر في سفينة ركاب إلى الاسكندرية ومنها إلى فلسطين، برفقة المحامي الصهيوني الألماني ماكس بودينهايمر، بالغ الحماس لفكرة الاستيطان اليهودي. في القطار سأل هرتزل بودينهايمر عن مقدار مساحة الأرض التي يعتقد أن اليهود يحتاجون إليها في الشرق، فأجابه: "مساحة تمتد من ضفاف مصر إلى الفرات، تسيطر عليها مؤسسات خاصة بنا لفترة انتقالية، يرأسها حاكم يهودي. وبعد ذلك، تكون لنا علاقة مع السلطان (عبد الحميد) شبيهة بعلاقته مع مصر. وحالما يصل عدد اليهود إلى ثلثي السكان، تتعزز الإدارة السياسية (لنا)...". إثر إهمال القيصر الألماني، تبعاً لإستشارات سياسية، فكرة هرتزل الذي كان ينشط بهمة في أروقة القصور الأوروبية باحثاً عن دولة كبرى تتبنى مشروعه، ركز الزعيم الصهيوني جهوده على لندن. وقد كانت أنظاره متوجهة دوماً نحو بريطانيا العظمى التي كان وسواه من قادة المنظمة الصهيونية يعتبرونها المثل الأعلى في استعمار أراضي البلدان البعيدة .

منذ تلك الزيارة ظلت فكرة العريش وسيناء على رأس جدول الحركة الصهيونية، وانتقلت إلى مرحلة جديدة سنة ١٩٠٢. ففي تلك السنة وبناء على تعليمات من هرتزل وضع ديفيد تريتش، أحد القادة والكتاب الصهاينة الألمان (١٨٧٠- ١٩٣٥)، والذي كان من أشد أنصار فكرة سيناء والعريش، خطة مفصلة بناءً على زيارات للجان استكشافية مسحت المنطقة وقدمت تقارير مفصلة، واستهدفت شمال سيناء والعريش. كان إغراء الفكرة يقوم على أساس قرب الأرض المُستهدفة من "أرض الميعاد" وبكونها زراعية ومغرية للاستصلاح ولإمكانية استجلاب المياه إليها من نهر النيل. **عُرف تريتش بكونه واحداً من الصهاينة ذوي الأفكار الاحتلالية الاستيطانية القصوى (Zionist Maximalism) إذ كان يؤمن ويدعو إلى استيطان "فلسطين الكبرى" من قبل اليهود، والتي ضمت بحسب رؤيته فلسطين وشمال سيناء وقبرص معاً.** وقد اختلف مع هرتزل و"صهيونيته السياسية" التي اعتمدت سياسة الحصول الأولي على تفويض رسمي من إحدى القوى الكبرى للاستيطان في فلسطين أو غيرها قبل الشروع في شراء الأراضي، فيما رأى تريتش أولوية وضرورة الشروع فوراً في شراء واستيطان أية أراض قريبة من فلسطين حتى لو كان ذلك من دون تفويض أو قبول الدول الكبرى. وكان تريتش قد بدأ بتنفيذ أفكاره هذه سنة ١٨٩٩ عبر إرسال جماعات أولية إلى قبرص. ثم حول اهتمامه إلى العريش وشمال سيناء، وظل مهتماً بهما رغم رفض اللورد كرومر والحكومة المصرية فكرة جلب يهود إلى المنطقة. وفي وقت لاحق أعاد تريتش فتح الملف مرة أخرى رغم الرفض المصري والمعوقات الأخرى، وفي سنة ١٩٠٦ نظم بعثة استكشاف إلى العريش وشارك فيها. ويُذكر أيضاً أن تريتش نفسه دعا لاحقاً إلى تعاون وثيق بين الصهيونية وألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، وكان رافضاً ومنتقداً لفكرة "الاستيطان البطيء" في فلسطين داعياً إلى هجرات موسعة وفورية إليها.

تخلى هرتزل عن تريتش وشكك في "مبالغاته" وتقاريره التي تستسهل فكرة استيطان العريش وشراء أراضيها، وفي سنة ١٩٠٢ اعتمد على غيره. ويقول في مذكراته أنه أرسل اليهودي غرينبيرغ إلى مصر،

واستلم منه في نوفمبر من نفس السنة رسالة مختصرة يقول له فيها "إنه من المُحتمل أننا نقف على عتبة الحصول على تفويض بريطاني وإنشاء دولة يهودية". وفي ٢٣ أكتوبر ١٩٠٢ وبعد جهود وتدخل من مؤيدين للصهيونية في لندن، التقى هرتزل مع جوزيف شامبرلين وزير المستعمرات البريطاني وفصل له فكرة إقامة كيان قومي ليهود أوروبا في إحدى مناطق نفوذ التاج البريطاني، وكيف ستخدم مصالحه. أخبره أيضاً عن اتصالاته ومفاوضاته مع السلطان عبد الحميد بهذا الشأن. ثم طرح عليه فكرة منح اليهود ثلاث مناطق دفعة واحدة: قبرص، العريش، وشبه جزيرة سيناء. شامبرلين رد عليه بأنه لا يستطيع التحدث إلا عن قبرص بكونها تقع تحت السيطرة والسيادة البريطانية فعلياً، بينما العريش وسيناء يتبعان ولو ونظرياً السيادة المصرية، برغم وجود اللورد البريطاني كرومر كحاكم فعلي في القاهرة. وحتى قبرص فإنها لن تكون سهلة بكونها مأهولة بالسكان وليس بالإمكان طردهم لإحلال اليهود مكانهم. **قدم هرتزل بناء على ذلك رداً يتأسس على احتقار الأجناس والشعوب الأخرى ومثقل بالعنصرية، إذ قال لشامبرلين إنه سوف ينشئ "الشركة الشرقية اليهودية" برأسمال خمسة ملايين جنيه، ويُناط بها استعمار سيناء والعريش وتحويلهما إلى منطقة مزدهرة بجهود سكانها اليهود. وعندها سوف ينشأ اهتمام شديد عند القبارصة لجذب بعض من "مطر الذهب"، أي اليهود، إلى جزيرتهم.** وبعد ذلك، أي بعد تزايد أعداد اليهود في الجزيرة، فإن مسلمي الجزيرة سوف يغادرونها، أما اليونانيين فيها فإنهم سيبيعون أراضيهم لليهود طواعية ورغبة في الحصول على الأثمان العالية التي سوف يجنونها، وإثر ذلك يرحلون إلى اليونان أو كريت. هكذا وبكل سهولة افترض هرتزل أن شعوب وسكان المناطق الأخرى سوف يبيعون أوطانهم وأراضيهم طعماً في المال. وضع هرتزل المُقترح في شكل حكم ذاتي يهودي مستقل لكن تحت السيادة المصرية العامة، وقد حول رئيس الحكومة البريطانية آنذاك، آرثر بلفور، المقترح إلى اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني في القاهرة لإبداء الرأي .

وقد أرسل كرومر في القاهرة لجنة استكشافية سنة ١٩٠٣ للمنطقة لدراسة الاقتراح على الأرض، وخلصت إلى أن استصلاح الأرض قد يكون صعباً لمهاجرين قادمين من أوروبا، لكن برغم تلك الصعوبة فإن الإمكانية قائمة إذا تم نقل مياه النيل إليها. واقترحت اللجنة البدء في مزارع صغيرة بغرض التجربة وقبل الشروع بفتح الباب لهجرة أعداد كبيرة من اليهود. تحمس هرتزل للمشروع بشكل كبير ورأى فرصاً كبيرة لتحققه على الأرض. وفي لقاء مهم آخر له مع شامبرلين في إبريل ١٩٠٣ أعاد طرح الفكرة معه. في ذلك اللقاء أخبر شامبرلين هرتزل أنه في الأشهر الماضية زار مناطق عديدة من الإمبرطورية ومنها مصر، وهناك التقى كرومر وتحدث معه حول المقترح. وأشار إلى أن تقرير البعثة التي أرسلها كرومر إلى العريش لم يكن إيجابياً، فرد عليه هرتزل بأن سيناء والعريش "بلد فقير، لكن نيتنا أن نعمل منها شيئا آخر". ثم قدم هرتزل مرافعة لافتة لشامبرلين مشدداً على الفائدة السياسية التي ستجنيها بريطانيا من إنشاء الكيان اليهودي في العريش. وقال **إن الأراضي هناك لا تساوي شيئاً وليس ثمة أحد مستعد لأن يدفع فلساً من أجل شرائها، سوى نحن (اليهود) لأن لنا أهدافاً سياسية. ثم ركز على أن كياناً يهودياً سوف يكون في خدمة الإمبرطورية البريطانية** وأنه "يجب أن يكون مفهوماً بأننا سوف نضع أنفسنا تحت راية بريطانيا فقط، وليس تحت الراية المصرية... وعندما نكون تحت راية بريطانيا في العريش، فإن فلسطين سوف تؤول إلى دائرة النفوذ البريطاني أيضاً". ثم تابع هرتزل مرافعته بأن بريطانيا لن تدفع شيئاً في كلفة الأرض وإن المال اليهودي سوف يتكفل بذلك، وكان قد رصد ميزانية خمسة ملايين جنيه لغرض استيطان سيناء. ولدفع

شامبرلين للموافقة على الفكرة والحماس لها، قال هرتزل إن إضافة مستعمرة جديدة لبريطانيا سوف تُعتبر إضافة مجيدة في سجل شامبرلين نفسه.

بيد أن أفكار هرتزل وسواه ومخططات الاستيطان في سيناء وإقامة وطن قومي لليهود فيها مكملة ومتماهية مع جهود يهودية سابقة للاستيطان في صحراء النقب الفلسطينية وشراء أراض فيها. وهذه الجهود تعود إلى سنة ١٨٨٢ عندما زارت بعثة من **منظمة "أحباء صهيون"** المنطقة لاستكشاف إمكانية شراء وتملك أراض فيها. وقد كتب رئيس البعثة آنذاك، ز. د. ليفونتين أن هناك عناصر عديدة إيجابية تسهل فكرة الشراء والتملك، منها رخص الأراضي، وتوفر مساحات واسعة غير مأهولة يمكن الحصول عليها من دون صعوبة، وبعدها عن الأماكن المقدسة الخاضعة لمراقبة وتنافس الدول الكبرى، وقربها من البحر. وبالفعل **أثمرت تلك الجهود في الحصول على عرض بالغ الإغراء للجمعية سنة ١٩٠٣ من قبل باشا القدس التركي (خلال حكم السلطان عبد الحميد!) وجهه إلى مناحم يوسيشكن، أحد قادة منظمة "أحباء صهيون" خلال زيارته الثانية للنقب. وقد تضمن العرض منح المنظمة نصف مليون دونم من أراضي بئر السبع بسعر بخس.**

ولم يصدق يوسيشكن العرض وأرسل مباشرة إلى هرتزل في فيينا طالباً موافقته على العرض، إلا أن هرتزل رفض ذلك بانتظار أن يحصل على قبول كلي وعام من قبل إستانبول لشراء الأراضي في فلسطين كلها وليس فقط في صحراء النقب.

***المصدر موقع رمان https://rommanmag.com ، ونشرت المقالات تباعا في موقع رمان في 10/6 وفي 11/1 وفي 11/20 وفي 2020/12/16 .**

انتهى الملف/الدراسة

لجنة التعبئة الفكرية في حركة فتح

بالتعاون مع مركز لانطلاقة للدراسات.

وانها لثورة حتى النصر